

القَصَصُ الدِّينِي
الحلقة الرابعة
العرب في أوربا

عبد الحرفوظ

عبد الحميد جودة السحار

ماتَ الحَكَمُ ، فانتَهَزَ عَمُّهُ الفُرْصَةَ ليعاودَ بطلبِ
الإِمَارَةِ ، فثارَ على عبدِ الرَّحْمَنِ ، الَّذِي تَوَلَّى الأَمْرَ
بعهدِ من أبيه ، وأطلقَ الفِتْنَةَ في الأندلسِ . فوجدَ
الفرنسيُّونَ أن يَغْتَنِمُوا هذه السَّاحَةَ ، ليزحفُوا إلى
كتلونيا وأرغون ؛ فسارتْ جيوشُهُم تُحرقُ وتُدَمِّرُ ،
بينما عبدُ الرَّحْمَنِ في شُغْلٍ بتسكينِ الثُّورَةِ ، التي
يُحاولُ أن يُشعلَها عَمُّ أبيه .

وثارتْ مَدِينَةُ مارْدَةِ على عبدِ الرَّحْمَنِ ، فكتبَ
إليهم الإمبراطورُ ، لُويْسُ بنُ شارلمان ، يُحَرِّضُهُم

على الثبات ، حتى يخفّ لنجدتهم . وعقد مؤتمراً
عاماً في إكسلاشابيل ، حضره أمراء البلاد المجاورة
لإسبانيا ، وأعلن عزمه على غزو الأندلس .

كان في إكسلاشابيل قائد قوطي ، كان قد انضم
إلى الإمبراطور ، فلما سمع بعزمه على غزو
الأندلس ، انسلّ خفية ، وانطلق إلى كتالونيا
وأرغون ، يثير الأهالي على الإمبراطور القادم للغزو
والقتال ، واستولى على مدينة أشونة ، واجتاح
البلاد التي كان الفرنسيون يحتلونها ، ثم أرسل
يستنجد أمير قرطبة .

أبطأ الأمير عبد الرحمن في إرسال المدد إليه ،
فذهب القائد القوطي بنفسه إلى قرطبة ، يحث الأمير
على الإسراع في التعبئة والنجدة . فسرح

عبد الرحمن معه جيشًا ؛ فراح الجيشُ ينطلقُ حثيثًا ،
بينما كانَ جيشُ الفرنسيّين يسيرُ هونا ، فوصل
الجيشُ الإسلاميُّ إلى برشلونة وجيرونة واجتاحهُما .
وانطلقَ عبدُ الرحمنِ إلى ماردة ، التي طلبتُ عونَ
الفرنسيّين ، وضيقَ عليها الحصارَ ثلاثَ سنواتٍ ،
حتى خرت ساجدةً تحتَ أقدامِهِ .

٢

كانَ الإمبراطورُ لويسُ الحليمُ ، ملكُ فرنسا ،
سَيِّئَ الإدارةِ ، ضعيفَ الإرادةِ ، فقسمَ مملكته بين
أولاده الثلاثة ، وسلمَ إلى كلِّ حصّة . ثم جاءه ولدٌ
رابع ، فأرادَ أن يُعيدَ القسمة ، ليعطِيَ لولده الرابعِ
نصيبًا ، فثارَ أبناؤه الثلاثةُ عليه ، وخلعوه ؛ ولكنْ

سَرَعَانَ مَا عَادَ عَلَى عَرْشِهِ ، بَعْدَ أَنْ فَقَدَ هَيْبَتَهُ
وَسَطْوَتَهُ .

رَأَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْقَلِيلَ الَّتِي تُعَانِيهَا فَرَنْسَا ،
وَالْقِتَالَ الدَّائِرَ بَيْنَ لُؤَيْسَ وَأَبْنَائِهِ ، فَانْطَلَقَتْ جِيُوشُ
عَبْدِ الرَّحْمَنِ تَجْتَاحُ الْبِلَادَ الْوَاقِعَةَ تَحْتَ الْإِحْتِلَالِ
الْفَرَنْسِيِّ ، فِي جِبَالِ الْبِيرَانِيَةِ ، وَسَارَ أُسْطُولُ
الْمُسْلِمِينَ مِنْ تَرْكُونَةِ ، يِعَاوُنُهُ أُسْطُولُ آخَرُ انْطَلَقَ مِنْ
جَزِيرَتَي مَيُورْقَةِ وَيَابَسَةِ ، وَهَاجَمَ الْمُسْلِمُونَ مَرْسِيلِيَا ،
وَنَزَلُوا فِي نَوَاحِيهَا ، وَاسْتَوْلُوا عَلَى ضَوَاحِيهَا ،
وَسَاقُوا جَمِيعَ الرِّجَالِ أَسْرَى .

وَكَانَ فِي أَحَدِ الْأَدِيرَةِ رَاهِبَاتٌ يَرْقُبْنَ تَقْدُمَ
الْمُسْلِمِينَ فِي وَجَلٍ وَخَوْفٍ ، وَكُنَّ يَخْشِينَ اعْتِدَاءَ
الْغَزَاةِ عَلَيْهِنَّ ، وَتَلْطِیْخَهُنَّ بِالْعَارِ ، فَرَأَتْ أُوزَيْبِيَا ،

رئيسة دَيْرِ الرَّاهِبَاتِ ، أَنْ يُشَوِّهْنَ خَلْقَتَهُنَّ ، حَتَّى
يُصْبِحْنَ دَمِيمَاتٍ يَنْفِرُ مِنْهُنَّ الْغَزَاةُ ، وَقَدْ فَعَلْنَ
مَا رَأَتْ رَئِيسَةُ الدَّيْرِ ، وَمِنْذُ ذَلِكَ الْوَقْتُ صَارَتْ
رَئِيسَةُ دَيْرِ الرَّاهِبَاتِ قَدِيسَةً ، وَأُطْلِقَ عَلَيْهَا سَانَتْ
أُوزِييَا .

٣

وَمَاتَ الْإِمْبِرَاطُورُ لُويْسُ سَنَةَ ٨٤٠ ، فَوَقَعَ
الْخِلَافُ بَيْنَ أَوْلَادِهِ ، وَاعْتَمَمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ هَذِهِ
الْفُرْصَةَ ، فَأَرْسَلَ الْمُسْلِمِينَ لَغْزْوِ فَرَنْسَا ، فَدَخَلُوا مِنْ
مَصَبِّ نَهْرِ الرُّونِ ، وَعَاشُوا فِي مَدِينَةِ آرْلَ وَنَوَاحِيهَا .
وَبَعَثَ الْعَسَاكِرَ بِقِيَادَةِ مُوسَى بْنِ مُوسَى ، عَامِلِ
تُطِيلَةَ ، فَرَاخُوا يَتَقَدَّمُونَ حَتَّى بَلَّغُوا أَرْضَ بَرطَانِيَةِ .
وَالْتَقَى الْمُسْلِمُونَ بِالْفَرَنْسِيِّينَ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ

الفرنسيون صبرا ، فانهزموا ، وعاد موسى بالغنائم والأسلاب .

وساءت الأحوال في فرنسا ، واجتاحتها الحروب الداخلية ، وتقاسم جنوبي فرنسا ثلاثة ملوك : الإمبراطور لوثر ، والملك شارل الأصغر ، والملك الشاب بيين ، ابن بيين الذي كان ملكا على أكتيانيا . فترك عبد الرحمن أعداءه يتقاتلون ، وراح يوطد ملك الأندلس ، فاتخذ القصور والمتنزهات ، وجلب إليها المياه من الجبال ، وأقام الجسور ، وبنى الجوامع ، وراح يزيد في جامع قرطبة ، وساد عصره الهدوء ، واحتجب عن العامة ، وكان يقضي وقته بين جواريه الحسان ، فقد كان كثير الميل للنساء . وحفّ به الشعراء والمغنون ، فكان أول من أحدث ذلك بالأندلس .

وولع عبد الرحمن بجاريته طروب ، وأحبها حباً
 شديداً ، فكان يقضي أوقاته معها ، وبلغ من هيامه
 بها ، أن أعطاها حلياً قيمته ألف دينار ، فقيل له :
 - إن مثل هذا لا ينبغي أن يخرج من خزانة الملك .
 - فقال في وجد :

- إن لابسه أنفس منه خطراً ، وأرفع قدراً ،
 وأكرم جوهراً ، وأشرف عنصراً .

وقد تدلّه فيها حباً ، حتى إنه كان يترنم :
 إذا ما بدت لي شمس النهار طالعة ذكرتني طروباً
 أنا ابن الميامين من هاشم أشبُّ حروباً وأطفي حروباً
 وخرج غازياً يوماً ، وطالت غيبته ، فاشتدَّ شوقه ،
 فراح يكتبُ إليها وهو في عسكره :

عدائي عنك مزار العدا وقودي إليهم سهاماً مُصيّبا

فكم قد تخطيت من سبب ولاقيت بعد حروب دروبا
ألقى بوجهي سُموم الهجـ بر إذ كاد منه الحصى أن يذوبا

٥

وأغضبها الأميرُ يومًا ، فهجرته وصدت عنه ،
وأبت أن تأتيه ، ولزمت مقصورتها ، فاشتد قلقه
لهجرها ، وضاق ذرعه من شوقها ، وراح يبذل ما
في وسعه ليرضاها ؛ ولكنها ظلت على الصّد ،
بعث إليها خُصيانَه ، يلتمسون منها أن ترضى عن
الأمير ، وأن تعودَ إلى الوصال فأغلقت بابها في
وجوههم ، فعادوا إلى الأمير مطأطيء الرؤوس .

وقال لهم عبد الرحمن :

— ماذا وراءكم ؟

قالوا في صوتٍ خافت :

- لن تخرج طائعة ، ولو انتهى الأمر إلى القتل .

فأطرق الأمير برهة ، ثم قال :

- وما العمل ؟

قال أحدُ خُصيانه .

- اسبح لنا يا مولانا أن نكسر الباب عليها .

فقال الأمير في غضب :

- إياكم وفعل ذلك .

ووقف مُضِرُّ الخصى ، الذى كانت طروب تُبرم

الأمور معه ، فلا يردُّ عبدُ الرحمن شيئاً مما تُبرمه ،

صامتاً لا ينبسُ بكلمة ، فالتفت عبدُ الرحمن إليه ،

وقال :

- تكلم يا مُضر ، ماذا نفعل ؟

- ترضها يا مولاي ، اغمرها يا حسانك تنس

إساءتك .

فَأَمَرَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ خُصِيَانَهُ أَنْ يَسُدُّوا الْبَابَ عَلَيْهَا
مِنْ خَارِجِهِ بِبَدْرِ الدَّرَاهِمِ ، ففعلوا وبَنَوْا عَلَيْهَا
بِالْبَدْرِ . وجاء عَبْدُ الرَّحْمَنِ حَتَّى وَقَفَ بِالْبَابِ ،
وَهْتَفَ فِي وَجْدٍ :

- افْتَحِي يَا طَرُوبُ ، افْتَحِي وَلَكَ جَمِيعُ مَا سُدَّ بِهِ

الْبَابُ .

وَفَتَحَتِ الْبَابَ ، فَانْهَارَتِ الْبَدْرُ فِي بَيْتِهَا ، فَوَقَفَتْ
تَنْظُرُ إِلَى الْمَالِ الْمُتَدَفِّقِ إِلَى حُجْرَتِهَا كَالسَّيْلِ فِي
دَهَشٍ ، ثُمَّ انْطَلَقَتْ إِلَى الْأَمِيرِ ، فَأَكْبَتَ عَلَى رِجْلِهِ
تُقَبِّلُهَا .

وطار صيْتُ عبد الرحمن ، حتى بلغ بغداد ، وسمع
 زرياب ، وكان من أعلام المغنين بالشرق بحفاوة
 عبد الرحمن بالشُّعراء والمُغنين ، فقرر الرّحيل إلى
 الأندلس .

كان زرياب أسود اللون ، فصيح اللسان ، شاعراً
 مطبوعاً ، وأخذ الغناء عن الموصلي ، وبرز فيه ،
 حتى خشي على نفسه عاقبة هذا التفوق ، لمنزلة
 الموصلي من الخليفة الرشيد ، فانسَلَّ إلى الأندلس ،
 وقدم على عبد الرحمن سنة ست ومائتين هجرية ،
 فأكرمه عبد الرحمن ، وأحسن وفادته ، وغمره
 بفيض إنعامه .

وذاغ اسمُ زرياب في الأندلس ، وصاروا
يحاكونه حتى في ملبسه ، وينقلون أخباره ، وكان
يجرى في الغناء مجرى الموصلي في العراق ، وصار
عمدة المغنين ، وراح يتفنن في الأصوات . وقد
أهمته البيئة الجديدة الغنية بروعة الطبيعة وجمالها
روائع الألحان ، ورققت طبعه ، فنهض بصناعة الغناء
في الأندلس ، واخترع للموسيقى نظاما خاصا
جديدا ، وأضاف إلى العود وترًا خامسا ، وكان قبله
على أربعة أوتار ، ووضع طرقا للغناء ، أصبحت
علما خاصا اشتهرت به الأندلس ، وتدفقت الأموال
عليه ، حتى قدر دخله كل عام بنحو أربعة آلاف
دينار .

كَانَ التَّنَافُسُ شَدِيدًا بَيْنَ الْخُلَفَاءِ الْعَبَّاسِيِّينَ وَأَمْرَاءِ
الْأَنْدَلُسِ ، فَكَانَ مُلُوكُ أَوْرَبَا يَجْدُونَ فِي هَذَا التَّنَافُسِ
مُتَنَفِّسًا لَهُمْ . فَإِذَا شَدَّ أَمْرَاءُ الْأَنْدَلُسِ عَلَيْهِمْ ، عَقَدُوا
الْمُعَاهَدَاتِ وَالْمَوَاطِيقَ مَعَ خُلَفَاءِ بَغْدَادَ ، وَإِذَا قَاتَلَهُمُ
الْخُلَفَاءُ ، مَالُوا إِلَى أَمْرَاءِ الْأَنْدَلُسِ ، فَكَانَ مُلُوكُ
أَوْرَبَا يَقْوُونَ بِذَلِكَ ، عَلَى حِينِ تَشَتَّتْ كَلِمَةُ
الْمُسْلِمِينَ .

وَفِي سَنَةِ ٢١٧ ضَيَّقَ الْمُسْلِمُونَ الْخِنَاقَ عَلَى
الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، فَكُتِبَ مَلِكُهَا تَوْفِيلٌ إِلَى الْمَأْمُونِ :
« وَقَدْ رَأَيْتُ أَنَّ أَتَقَدَّمَ إِلَيْكَ بِالْمَوْعِظَةِ الَّتِي يُثَبِّتُ اللَّهُ
بِهَا عَلَيْكَ الْحُجَّةَ مِنَ الدُّعَاءِ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ إِلَى
الْوَحْدَانِيَّةِ ، وَالشَّرِيعَةِ الْخَفِيفَةِ ، فَإِنْ أَيْتَ فَفِدِيَّةٌ
تَوْجِبُ ذِمَّةً ، وَتُثَبِّتُ نَظْرَةً ، وَإِنْ تَرَكْتَ ذَلِكَ ، فَفِي

يقين المعاينة لنعوتنا ما يُغنى من الإبلاغ في القول ،
والإغراق في الصفة ، والسلام على من اتبع
الهدى .

ومات المأمون ، ووقعت حروب تشيب من هولها
الولدان بين المعتصم وتوفيل ملك الروم . فرأى
توفيل أن يستفيد من الجفوة بين بغداد وقرطبة ،
فبعث إلى الأمير عبد الرحمن بهدية ، يطلب
مواصلته ، ويرغبه في ملك سلفه بالشرق ، ذلك
الملك الذي استولى عليه العباسيون . وما كان توفيل
يفعل ذلك حباً في عبد الرحمن والأمويين ، بل بغضاً
في العباسيين ، الذين كانوا يستلون ملكه ،
ويطوونَه تحت قدميه .

وكأفاه عبد الرحمن على الهدية ، وبعث إليه يحيى

الغزال ، من كبار أهل الدولة ، وكان مشهوراً في
الشعر والحكمة ، فراح يُقربُ بينَ ملكِ القُسطنطينيةِ
وعبدِ الرحمنِ نكايَةً في خُلفاءِ بني العباسِ ، فشاعتِ
الفرقةُ بينَ المسلمين ، وراح مُلوِكُ أوربَّا يترقبونَ
فرصَتَهُم ليضربوا خُلفاءَ بغداد وأمرأءَ قُرطبةِ معا .